مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10 / العـدد: 02 (2022)، ص: 845- 855

اليوجينيا من الأفكار الفلسفية إلى الدراسات العلمية والتأطيرات البيوتيقية

Eugenia from philosophical ideas to scientific studies and bioethical frameworks

فتيحة بن حمادة [1]، صباح قلامين[2]

[1] جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة، مخبر التربية والإبستمولوجيا (الجزائر)، f.benhamada@univ-dbkm.dz

[2]جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة، مخبر التربية والإبستمولوجيا

(الجزائر)،sabahguelamine@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/03/17 تاريخ القبول: 2022/03/24 تاريخ النشر: 2022/05/10

ملخص:

أحدثت الثورة البيولوجية الكثير من التحولات مست مجمل جوانب الإنسان ولعل من أهم تلك الموضوعات المعاصرة في الميدان الوراثي الجيني مسألة "اليوجينيا"(تحسين الصفات الوراثية للإنسان) و التي تعتبر من أبرز القضايا المطروحة التي أخذت صدى واسع في الفكر الإنساني، إذ تكمن أهميتها بالدرجة الأولى كونها موضوعا علميا تمثل في تطبيق علم الوراثة البشرية على المشاكل الاجتماعية ففتحت آفاقا واعدة أمام الإنسان المعاصر من خلال تحسين حياته وذلك بتعديل جيناته الوراثية ومعالجة العيوب والأمراض الوراثية وإصلاحها .إلا أنها في ذات الوقت تحمل شقا آخر لكونها قضية فلسفية تصب حول مدى انعكاساتها القيمية و الأخلاقية، تمخض عنها مشكلات علمية وأخرى فلسفية ذات طابع قيمي أخلاقي فرضت على الجميع إعادة طرح تساؤلات جديدة حول مصير الإنسان آنيا و مستقبليا.

كلمات مفتاحية: اليوجينيا،تحسين النسل،البيوإتيقا،البيولوجيا،مستقبل الإنسان.

Abstract: the biological revolution brought about many changes that affected all aspects of man, perhaps one the most important contemporary topics in the genetic field is the issue of eugenics (improving the genetic traits of humans),which is considered one of the most prominent issues that have received wide resonance in humans thought ,as its importance lies in the first place as a scientific topic represented in the application of human genetics to social problems promising prospects were opened for contemporary man by improving his life by modifying his genetic genes and treating and repairing genetic defects and diseases however, it bears another crack because it is philosophical issue about the extent of its value and moral implications, resulting in scientific and other philosophical problems of a value nature. My moral imposed on everyone to re-ask new questions about the fate of man now and in the future.

Keywords: eugenics; eugenices; Bioethics; biology; human future.

المؤلف المرسل: بن حمادة فتيحة و قلامين صباح

مقدمة:

إن النقلة النوعية التي أفرزها التقدم العلمي والتكنولوجي في وقتنا المعاصر قد أذهل المتتبعين في جميع الميادين والتخصصات، مما جعلهم يعيدون النظر في جل تخيلاتهم وتوقعاتهم المستقبلية. فالثورات العلمية المعاصرة وخاصة تلك التي مست الهندسة الوراثية وما تمخض عنها من مشكلات ترنحت بين جوانب علمية وأخرى فلسفية ذات طابع قيمي

أخلاقي فرضت على الجميع إعادة طرح تساؤلات جديدة حول مصير الإنسان آنيا ومستقبليا . فالحقيقة التي تجلت أن تلك التساؤلات لم تبق على الصعيد العلمي والتكنولوجي وإنما تجاوزتها إلى الأصعدة الأخرى الاجتماعية والأخلاقية والدينية ....والسبب في ذلك أنها قد تكون ربما مبعثا للخطر والمخاوف.

فالثورات العلمية المعاصرة فرضت نفسها على البحث الفلسفي المعاصر ما نجم عنه ظهور ميادين جديدة ومختلفة وهو ما يعرف اليوم بالفلسفة التطبيقية عموما وبالأخلاقيات التطبيقية بوجه أخص مثل أخلاقيات المهنة وأخلاقيات الطب والبيولوجيا .... فلا شك أن الأبحاث الفلسفية حول هذه المجالات وبالذات ما ينعكس مباشرة على الإنسان أصبحت هي الموضوع الأساسي للكتابة خاصة فلاسفة الأخلاق في هذا العصر وهي بلا شك تمثل في ذات الوقت مستقبل البحث الفلسفي في المجال الأخلاقي المعاصر.

ولعل من أهم تلك الموضوعات المعاصرة في الميدان الوراثي الجيني مسألة " اليوجينيا " والتي تعتبر من أبرز القضايا المطروحة التي أخذت صدى واسع في الفكر الإنساني إذ تكمن أهميتها بالدرجة الأولى كونها موضوعا علميا تمثل في تطبيق علم الوراثة البشرية على المشاكل الاجتماعية. إلا أنها في ذات الوقت تحمل شقا آخر لكونها قضية فلسفية تصب حول مدى انعكاساتها القيمية والأخلاقية . وعليه فإن هذا العلم المترتب على الثورة البيولوجية – البيوجزيئية يثير لدينا الإشكاليات التالي:

ما المقصود بمصطلح اليوجنيا ؟ وما هي الجذور التاريخية للفكرة التحسين البشري؟ وما هي تداعيات اليوجينيا على مصير الوجود الإنساني ؟، فهل تغيير المادة الوراثية وتزويد الإنسان بصفات التميز والعبقرية يعد أمرا أخلاقيا ؟ .

1/ اليوجينيا من سيرة المفهوم إلى استقراء التاريخ :

1/1 اليوجينيا: تأصيل مفاهيمي:

اشتق مصطلح **اليوجينيا** من اللغة اليونانية ويعني طيب الأصل وصاحب الصفات الوراثية الجيّدة والتركيبة الوراثية المتفوقة، وقد تحول مع مرور الوقت إلى مذهب وحركة تدافع على مطلب تحسين النسل للجنس البشري، عن طريق إصلاح العيوب والاختلالات والتشوهات الجينية ومعالجة الأمراض الوراثية، وربما تتم إبادة الأشخاص الذين يعانون من تخلف وراثي وعاهات جينية. فهي اتجاه يضم أفكار أو أنشطة تهدف إلى تحسين نوعية البشر عن طريق معالجة العيوب الوراثية للمرض أو التخلص منهم وتصفيتهم. (غانم، دس، ص 333).

فاليوجينيا أو ما يسمى بتحسين النسل يعرف بأنه:" العلم الّذي يدرس تحسين الأجناس بتغيير التركيب الجيني فيها وذلك بتشجيع التزاوج بين من يظن بأنهم يحملون جينات مرغوبة (تحسين النسل الإيجابي) أو عن طريق منع التزاوج بين من يظن بأنهم يحملون جينات غير مرغوبة (تحسين النسل السلبي)"(هلالي ولعسولي، 2007، ص 114). بمعنى أن تحسين النسل هو ذلك العلم الذي يختص بدراسة الأجناس المختلفة بما فيها الجنس البشري، ويسعى من خلال دراساته لها أن يغير تركيبها الوراثي ويبدل الصفات الجينية لهذه الأجناس، وهو نوعان: تحسين نسل إيجابي يشجع التناسل والتكاثر بين الأشخاص الذين يعتقد أنهم يملكون صفات وراثية جيّدة ومرغوب فيها من طرف الناس، وتكون خالية من العيوب والأمراض الوراثية، وتحسين نسل سلبي يتم فيه منع الأفراد من التناسل والتكاثر بحجة أنهم لا يمتلكون صفات وراثية جيدة تخول لهم الإنجاب والتكاثر، وبالتالي حرمانهم من حقهم الطبيعي في الزواج والإنجاب.

فحتى وقت قريب كان الرأي السائد أن علاج الأمراض عموما هو عن طريق معالجة العوامل البيئية المتعلقة بالمرض أما العوامل الوراثية فهي قدر محتوم لا سبيل لتغييره، على أن هذه النظرة قد تغيرت مع تقدم وسائل الهندسة الوراثية أو إدخال تغيير على المادة الوراثية للخلية، فقد أصبح من الممكن الآن فصل جين معين يحمل صفة وراثية معينة من خلايا أحد الكائنات ثم إدخاله على المادة الوراثية في كائن آخر من نفس النوع، أو حتى من نوع أخر، بحيث تنتقل للأخير الصفة الوراثية التي كانت في الكائن الأصلي(فهمي، 1994، ص 332).

كما تدلEugenisme أيضا:"على الحركة الاجتماعية السياسية الإيديولوجية التي تدافع عن ممارسة تحسين النسل (أو إيديولوجيا تحسين النسل)" وهي حركة كانت تهدف من ورائها الدول الأوروبية إلى تحسين الصحة العامة، في ظل الظروف الإقتصادية والاجتماعية التي عرفها القرن التاسع عشر(بوفتاس، 2011، ص336) .

فالهدف الرئيسي لليوجينيا أو تحسين النسل هو إيجاد مجتمع يتمتع أفراده بالقوة البدنية و العقلية ، ويتم ذلك بانتقاء الأفراد الذين يحصلون على الإجماع الكامل على كونهم يمتلكون الصفات الوراثية المطلوبة،بحيث تأخذ هذه الصفات الوراثية و يتم نقلها إلى غيرهم وبهذه الطريقة يتم ضمان بقاء هذا النوع إضافة إلى تحسين النوع البشري

1/ 2 الإرهاصات التاريخية لفكرة اليوجينيا:

ترجع تاريخيا الإرهاصات الأولى لظهور علم تحسين النسل وفكرة تربية أناس أفضل إلى الحضارة اليونانية وبالضبط إلى الفيلسوف اليوناني أفلاطون ، فحين تأسيسه لجمهوريته الفاضلة أكد على منح المناصب على أساس الصفات الوراثية ، كما ألح على ضرورة تحسين النسل من خلال منع الأفراد الذين يعانون من تخلف وراثي من الإنجاب وتشجيع الأسوياء على فعل ذلك، بالإضافة إلى ذلك أصر على أن تتولى الدولة عملية تربية الأطفال ورعايتهم وتمييزهم حسب قدراتهم الوراثية.

لكن الصيغة الحديثة ـ اليوجينيا. قد نشأت على يدي " (فرانسيس غالتونFrancis Galton **(**عام 1883 -وهو ابن خالة العالم تشارلز داروين" - برنامج للتكاثر البشري أسماه علم تحسين النسل | Eugenics الهدف منه لا يقتصر على إيقاف الانحلال والتدهور المفترض للمخزون البشري، بل يتعداه إلى تحسين الصفات الجسمية والفكرية للأجيال المقبلة.(الحفار، 1984، ص 29).

يعتبر غالتون أول من جاء بفكرة استخدام بصمات الأصابع في ملاحقة المجرمين فقد كان غريب الأطوار وهو ما تبينه عناوين مقالاته العلمية التي فاقت 300 مقال علمي ، كما جاء بفكرة أنه يجري ترميز **code** الصفات الإنسانية إلى إرث فريد يتلقاه كل شخص من أسلافه ، الأمر الذي أدى إلى الثورة التي يشهدها علم الوراثة الإنساني في وقتنا الحاضر، حيث اهتم خاصة بفكرة وراثة العبقرية . وهو ما بينه في كتابه " العبقرية الوراثية " عام 1869م وجعل من تلك الطاقة والصفات الوراثية فطرية وليست مكتسبة . (جونز، 2007م، صفحة 14)

فلا يقتصر برنامج تحسين النسل الذي اقترحه "فرانسيس غالتون على الحفاظ على المخزون البيولوجي للجنس البشري عن طريق إيقاف التدهور الذي يطال المخزون الجيني للإنسان، بل يسعى إلى تطوير الإرث الوراثي للإنسان من خلال تنمية قدراته البيولوجية والجينية ، عن طريق تحسين صفاته الوراثية في مختلف أعضاء وجوانب الإنسان سواء البدنية أو الذهنية والعقلية والفكرية، لضمان حياة أفضل للأجيال القادمة خالية من العيوب والأمراض الوراثية، وعليه يتمتع إنسان المستقبل بصحة جيدة ويتمتع بقدرات بدنية وذهنية كبيرة.

وفي أواخر القرن التاسع عشر "اقترح غالتون أنه من الجائز أن نتمكن من تحسين الجنس البشري بنفس الطريقة التي يربى بها النبات والحيوان ... فكان غالتون يهدف من خلال اليوجينيا إلى تحسين سلالة الإنسان بالتخلص مما يسمى

الصفات غير المرغوبة، ومنعها من الانتقال والتكاثر وإبادتها ، وفي نفس الوقت العمل على دعم الصفات الوراثية الجيّدة والمرغوب فيها لدى الناس وتشجيع انتقالها وتكاثرها ، وبهذه الطريقة يتحسن النسل البشري ، وتختفي العيوب الوراثية وتزول الأمراض الجينية ، ويصبح جميع البشر أقوياء وأصحاء .(دانييل و ليروي، 1990، ص 14).

ولقد ميز غالتون بين نوعين من تحسين النسل:"تحسين النسل الإيجابي الذي يهدف إلى دعم الخصائص البيولوجية والنفسية والعقلية الإيجابية وتشجيع إنجاب الأفراد الأكثر كفاءة. حيث يؤكد غالتون على هذا النوع الأول أكثر من تحسين النسل السلبي الذي يسعى إلى استبعاد الخصائص البيولوجية السلبية وتقليص إنجاب الأفراد الضعاف وذوي العاهات والعاجزين عن التكيف الاجتماعي "(بوفتاس،، 2011، ص 336).

إن تحسين النسل حسب غالتون نوعان: أحدهما إيجابي يهدف إلى تحسين الإرث الجيني للإنسان من خلال تزويده بالصفات الوراثية الممتازة التي تمنح بدورها الإنسان قدرات بدنية وعقلية خارقة وتخلصه من العيوب والأمراض الجينية، وعليه من الواجب علينا دعم وتنمية هذا النوع من البحوث الذي يصب في مصلحة الإنسانية جمعاء، أما النوع الثاني فهو تحسين سلبي، يمارس نزعة تمييزية اقصائية في حق الكثير من الأشخاص الذين يعانون من عاهات وراثية وعجز وراثي وتخلف بيولوجي يجعل عملية تكيفهم في المنظومات الاجتماعية أمرا صعبا جدا، إن لم يكن مستحيلا في بعض الأحيان، لذا يتم منعهم من التزاوج والإنجاب كي لا تنتقل صفاتهم الجينية لأجيال المستقبل، وعليه فهو إقصاء كذلك للصفات الوراثية التي يعتقد أنها ضعيفة.

كما نجد أن من أهم أنصار تحسين النسل المستوحى من " الداروينية الاجتماعية " يمكن ذكر " جورج فاشي ردي لابوج " و " جوستاف لوبون " و الأقرب زمنيا ومعاصرا الطبيب " ألكسي كاريل " هذا الأخير الذي كتب كتابه الشهير المعنون ب " الإنسان هذا المجهول " في فترة ما بين الحربين وفيه قال :" بدلا عن أن نساوي التفاوت العضوي والعقلي كما نفعل حاليا سنضخم هذا التفاوت ونبني رجالا أكبر عظماء فيجب التخلي عن الفكرة الخطيرة بتقليص الأقوياء ورفع الضعفاء مما يجعل العاديين يتكاثرون " . كما لا يتردد هذا الطبيب الحاصل على جائزة نوبل بقوله :" يجب أن نبحث وسط الأطفال عن من يملكون قدرات كامنة عالية ونطورها تماما قدر الإمكان مما يمنح الأمة الأرستقراطية غير وراثية أننا نقابل بينهم ونظهر المتميزين منهم ومن الأسر الذكية " . (بويكان، 2017م، صفحة 59)

2/ اليوجينيا من الرؤية العلمية إلى التداعيات الأخلاقية :

2/ 1 المسيرة العلمية لليوجينيا :

لقد اعتبر مكتشف علم اليوجينيا غالتون " أن علم الوراثة مفتاح الماضي " فلابد أن يكون لكل جينة سلفا وكل جينة هي رسالة من أجدادنا وتتضمن مجتمعة قصة التطور الإنساني كاملة . فالوراثة ربط بين الماضي والحاضر والمستقبل الإنساني فهي تبين رمز الجين لكل إنسان وهي تتألف من أربعة حروف تمثل أربعة كلمات تكون الجين الإنساني وهي " الأدينين " و " الغوانين " و " السيتوسين " و " الثيمين " . فهي حموض أمينية تجتمع لتكون البروتينات وبذلك اعتبرها غالتون وأتباعه من علماء الأحياء " أحجار البناء الإنساني " . (جونز، 2007م، صفحة 16) .

إن أول تجربة أجريت على البشر لتحسين العرق البشري قامت تحت إشراف " إيليزابيت نيتشه" وهي أخت الفيلسوف الشهير " نيتشه" في ألمانيا عام 1886م حيث اختارت عددا من سكان منطقة " سكسونيا " وأرسلوهم إلى الباراغواي ومن يذهب اليوم إلى قرية تدعى " نوفا جرمانيا " أو " ألمانيا الجديدة " سيلاحظ أن سكان هذه القرية المعزولة يتميزون عن جيرانهم بشعرهم الأشقر والعيون الزرقاء ويحملون أسماء ألمانية وليست إسبانية يتمتعون بسلالة وراثية راقية وكان الهدف من هذه التجربة استنسال سلالة راقية تتمتع بقدرات وراثية خارقة . (الخلف، 2003، صفحة 182)

وفي عام 1898م أنشء في أمريكا مكتب لسجل علم تحسين النسل على يد أرملة أحد الأثرياء تدعى السيدة " هاريمان " وفي مطلع القرن 20 تأسست النوادي الأهلية التي تهتم بتحسين النسل وكانت هذه النوادي تقدم الجوائز المالية وغيرها للعائلات الأصلح وراثيا وذلك لتحفيزها على الإنجاب وفي الفترة نفسها تم إحصاء آلاف المواطنين من أجل منع تكاثرهم لاكتسابهم صفات وراثية غير لائقة للمجتمع . (الخلف، 2003، صفحة 182) .

وفي عام 1910م كان " وينستون تشرشل " أكثر رؤساء حكومات بريطانيا شهرة يشغل منصب وزير الداخلية وقد أزالت الحكومة البريطانية في عام 1992م قوله التالي :" التكاثر السريع غير الطبيعي لجماعة المعتوهين ومختلي العقول الذين يتزاوجون كما هي الحال بين السلالات المزدهرة والنشطة والراقية كافة يشكل خطرا قوميا وعرقيا لا يطاق تفاقمه وأعتقد أنه يجب تجفيف النبع الذي يغذي تيار الجنون هذا قبل مضي سنة أخرى " . (الخلف، 2003، صفحة 182)

فكان لأفكار غالتون المتعلقة بتحسين النسل ومفاهيم داروين الارتقائية تأثير عميق على الحياة العلمية وتخطته إلى الفكرية والسياسية في القرن العشرين ، لأنها أثرت على شتى التوجهات السياسية والعلمية من اليسار واليمين والتقدميين والرجعيين ... فأثرت بشكل صريح وضمني على أفكارهم خاصة عندما جمعت بين غالتون وداروين الفكرة نفسها والمتمثلة في الإيمان بعلم الحياة كقدر وتأثير الجينات على الناس الذين يحملونها . (جونز، 2007م، صفحة 20).

فكل المؤشرات الراهنة تدل بشكل واضح على أن الإنسان اليوم يمر بانفلات أخلاقي من خلال انجاز العلماء العديد من التجارب وبدون ضوابط على الكائنات الأخرى ثم يجربها على البشرية دون مراعاة لأي رادع ، مما أحدث شرخا واضحا بين تركيبة الإنسان البيولوجية وهويته الأخلاقية فما ينجزه ويقدمه من تطور في الجانب البيولوجي يلقي بالكثير من التداعيات والآثار المختلفة تتصادم مع الجانب الأخلاقي لما تحمله من مفارقات و تجاوزات إنسانيته.

فإذا كان المتعارف عليه أن النوع يستمر من خلال إتحاد الخلية الذكرية مع الخلية الأنثوية عن طريق عملية التزاوج لتؤدي إلى إنتاج ذرية جديدة ، إلا أن الوضع اختلف تماما في ظل التطورات الراهنة فكل ما كان متعارف عليه قد تم إلغائه وحل محله أمر جديد ، يمكن أن تنشأ الذرية من خلايا المخلوق الجسدية لا الجنسية (صالح، 1981، ص 35) .

كان عالم الأجنة الألماني " أرنست هيكل " واحد من أتباع غالتون كما تأثر بفكرة أصل الأنواع كان هيكل أكثر من عالم أحياء فكان متحمسا للتغيير الاجتماعي حتى رأى أن :" الأنظمة الاجتماعية هي القوانين الطبيعية للوراثة والتكيف " . كما أكد أن القدر التطوري للألمان هو التغلب على المنحطين . (جونز، 2007م، صفحة 20)

إن البحوث العلمية وفي مقدمتها البحوث البيولوجية قد تجاوزت كل الحدود وتخطت كل الخطوط المرسومة لها خاصة عندما تم فصل الدين و الأخلاق عن العلم واستبعادهما من الحقول العلمية ، فأصبحت البحوث العملية حرة من كل القيود والمراقبات والمساءلات ، فاستغلت الفرصة وقامت بكل المحظورات وانتهكت كل السنن، فعلى سبيل المثال لم نعد بحاجة للزواج ولا بحاجة للتكاثر الطبيعي عن طريق اندماج الخلية المنوية للرجل مع الخلية البويضة للمرأة في عملية إنجاب الأطفال، لأنه ظهر نوع من التكاثر يتم بواسطة دمج خلية جسدية في بويضة مفرغة من المحتوى الوراثي وهذا ما يعرف بالاستنساخ البشري ، وكذا التلقيح الاصطناعي وأطفال الأنابيب... حيث تم الاستغناء عن الخلايا الجنسية في هذا التكاثر ، كما أصبح بإمكاننا تحديد جنس الولد وغيرها من الأبحاث البيولوجية المستجدة التي تجاوزت كل القيود وكل ما هو مألوف.

فلا بد أن تتهيأ العقول الحالية للقنبلة أو القنابل البيولوجية التي سيفجرها العلماء، وسيكون صداها أغرب مما نتصور، ولن يقتنع الناس بالكلام، أو التصريحات أو التنبؤات التي سيحملها لنا المستقبل، ويصبح التغيير في برامج الكائنات الحية هو القاسم المشترك الأعظم في البحوث البيولوجية عامة والهندسة الوراثية خاصة(صالح، 1981، ص 111).

2/ 2 التأطير الأخلاقي لأبحاث اليوجينيا :

إن تأثيرات العلم اليوجيني قد ظهرت أكثر دعوتها مع " الفلسفة النيتشوية " التي ترى أن الحرب ضرورية للتخلص من البشر المتخلفين الضعفاء ، وكما قال اليوجيني الكبير " كارل بيرسون " :" إن اعتماد التقدم على البقاء للسلالة الأفضل على رغم ما قد يبدوا فيه من شر فظيع إنما يعطي الصراع من أجل البقاء ملامحه المفتداة ، إذا توقفت الحروب فلن يتقدم جنس البشر لن يكون هناك ما يكبح جماح خصب السلالات المتخلفة " . (النشار، 2010م، صفحة 176)

فالسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا ما هو مصير البحوث البيولوجية عامة ومستقبل الإنسان خاصة؟ إلى أين وفي أي طريق سوف يوضع هذا الإنسان وما الذي تريد البحوث البيولوجية صنعه من الإنسان ولمن تكون الأفضلية؟.وهل ما ستنتجه بواسطة التخريب في النظام الوراثي للإنسان سيكون له الأفضلية من الإنسان الحالي وسيكون أرقى عقليا منه من خلال التلاعب بحياته وصنع نسخة أفضل منه؟.

لابد من وضع معايير و أطر لترشيد البحوث وانضباطها، فإذا كان هناك تغيير ما أو تعديل وإصلاح الطبيعة البشرية فكيف يكون ذلك ؟ هذه من بين القضايا التي خلقت جدلا واسعا حول انعكاسات الثورة البيولوجية وتطورات الهندسة الوراثية وكذا أبحاث علم اليوجينيا على الإنسان فما الذي سيتغير فيه ؟ . فالإنسان الذي سيعدل ليس نفسه بالصفات الكاملة ومكوناته الأساسية . فالتعديل الحاضر لا يمكن توقع إن كان سيؤثر في تعزيز الإنسان على الهوية الشخصية ،لأنه يتضمن إدخال تعديلات على عقله وجسمه وتزويد المرء بقدرات فوق عادية.

إن بعث الخلية الجسدية ، وتحويلها إلى خلية جنينية هو عودة بالخلق إلى الوراء في الزمن وهذا أمر خطير حقا وهو يشكل قضايا فكرية وعلمية وفلسفية واجتماعية وهنا فتحت هذه التجارب الباب أمام الرأي العام بين معارض ورافض للفكرة . فالتخوف كان ناتج من الآثار السلبية والانعكاسات غير المرغوب فيها لليوجينيا ، ففي بادئ الأمر كان التجريب على الحيوان والانتقال من الحيوان إلى الإنسان وما يتميز به كل شخص نظرا لخصوصية الإنسان فالإنسان يختلف من شخص إلى آخر وبذلك تكون المجازفة كبيرة والمخاوف أكبر.كما أن بعض الناس مصابون بفزع لظنهم أن طموح العلماء قد يدفعهم رغما عنهم إلى تناول الإنسان نفسه وتحويله إلى حيوان تجارب (صالح، 1981، ص 56)

لقد أربك تحسين النسل البشرية ، وبث في نفوسهم الخوف والقلق من أن يتحول الطموح العلمي لتحسين النسل إلى مشروع تدجين بشري كما يحدث في التدجين الحيواني والنباتي ، وعليه يصبح الإنسان فأر تجارب في المختبرات العلمية للعلماء . فلخوف وقلق البشرية تبريره ، وفحوى هذا التبرير تتمثل في خوف الإنسان على وجوده وكينونته وهويته البشرية من التلاعب والتغيير ، وكذا خوفه من أن تنتهك كرامته المقدسة ويتم العبث بحياته وتركيبته الوراثية ، والأهم من هذا لن يكون مركز الكون ومحل الاهتمام بل سيصبح مادة وسلعة قابلة للتجريب وإعادة الإنتاج.

وبرغم أن البشر بشر إلا أنهم ليسوا جميعا نسخا مكررة بعضهم من بعض فالأشخاص مختلفون فيما بينهم و لا أحد يشبه شخصا آخر حتى التوائم الحقيقية فنجد أنهم إذا ما تشابهوا في الشكل يختلفون في الشخصية فما بالك بالأشخاص الآخرين.

فكل شخص يتميز عن شخص آخر سواء بالصوت أو الشكل و الملامح، فكيف لنا أن نقول بأن تنشىء شخص مطابق لشخص آخر في كل شيء ؟ . وهذا يخلف طابع من التخوف والفزع يجعل الناس غير مدركين لحقيقة الأشخاص ولا يدري إن كانت النسخة الأصلية أم هو بديل عنه ؟ .

ومن التبعات الناجمة عن عملية التحسين الوراثي هي إمكانية خلق كائنات بشرية غير جينية، بانتقال جزء من ورثة كائن آخر إلى مورثات الإنسان لتتوارثها الأجيال من بعد، وبالتالي خلق أفراد مشوهين وتنتقل هذه المورثات إلى الأجيال التي بعده .

وفي مقابل ذلك وباستغلال التطور وبمزاعم تحسين النسل والتلاعب بالجينات وإنتاج كائنات بشرية حسب مواصفات معينة يرافق ذلك القضاء على سلالات بشرية بإدعاء أنها ناقصة أو غير مرغوب فيها وذلك تحت طائلة تصفية المجتمع من الأفراد الغير مرغوب فيها أو الذين يشكلون عائق في المجتمع.

كما نجد موقف "جوليان هكسليJulian Huxleyالمثالي الذي أشار إلى مخاطر العلم الزائف الذي تمثله النظرية النازية العنصرية يحذرنا جوليان هكسلي من عودة الممارسات العنصرية والإبادة الجماعية التي مارستها النازية، ولكن هذه المرة ستكون ذات طابع بيولوجي وراثي، حيث سيتم التخلص من الصفات الوراثية التي يعتقد أنها متوسطة ومتخلفة، كما سيتم منع الأشخاص اللذين يعانون من تخلف جيني ومن عاهات وعجز وراثي من الزواج والتكاثر، لكي لا يتكاثر نسلهم وتنتقل صفاتهم للأجيال القادمة، وربما تتم إبادتهم بالكامل، وعليه ضرورة أخذ موقف صارم تجاه هذه الممارسات العنصرية الابادية، وضرورة حماية الجنس البشري بكل اختلافاته وتنوعاته الجينية ومقدساته. (بوفتاس، 2011، ص 351).

مع التقدم الهائل أصبحنا نواجه اليوم تحولا جديدا، يطرح مشكلات تستحق التمعن خاصة إذا تعلق الأمر بنمط تدخل جديد مع فك شفرة الجينوم وإمكانية التحكم الخارجي من قبل الإنسان في التركيبة الجينية لإنسان آخر .انه يطرح قضية في غاية الأهمية لأن " الفكرة السائدة حتى الآن على مستوى الحداثة الأوروبية يمكنها على غرار الإيمان الديني الانطلاق من أن التجهيز الوراثي للمولود الجديد، وبالتالي من الشروط العضوية لانطلاق سيرته المستقبلية، هي بمعزل عن كل برمجة وعن كل تلاعب مقصود من جانب الآخرين والشخص حين يكبر باستطاعته دون أدنى شك إخضاع تاريخه الشخصي لحكم نقدي ولمراجعة استبطانية"(هابرماس، 2006، ص 21).

إن التدخلات الوراثية التي تطال الجنين من خلال التلاعب في تركيبته الجينية قصد إحداث تغيير دون وجود سبب مقنع ، كوجود خلل وراثي أو احتمال الإصابة بمرض وراثي يفرز اليوم العديد من المشاكل الأخلاقية ، كانتهاك حرمة الجسد البشري ، وانتهاك الكرامة البشرية، وتغيير كينونة وهوية الجنين ، ولهذه الأزمات انعكاساتها السلبية والمستقبلية على الجنين عندما يكبر، فحينما يعي هذا الإنسان أنه تم التلاعب بتركيبته الوراثية سيعاني من العديد من المشاكل النفسية ، قد تؤدي به إلى العزلة والانغلاق والتوحد، وفي أسوء الأحوال سيجرم في حق نفسه وينتحر، كما ستتسبب له بمشاكل اجتماعية حيث سيتعرض للتنمر والتمييز العنصر وربما يتعرض للظلم واللاعدل في الممارسات والحقوق.

تظهر الضرورة لمحو هذه النسالة السلبية (المبررة فرضيا) عن النسالة " الإيجابية " غير المبررة منذ بداية الأمر) وبقدر ما يكون هذا الخط الفاصل مبهما ولأسباب مفهومية أو عملية ، فإن الأولى (النسالة السلبية التي تريد احتواء التدخلات الوراثية خارج حدود نكون بعدها أمام تحد شديد التناقض ذلك أننا أمام مجال علينا فيه أن نقيم بل أن تفرض خطوط انطلاق واضحة بشكل خاص "(هابرماس، 2006، ص 28).

إن الحقيقة التي تتجلى من خلال تلك الانعكاسات هي تلك العلاقة غير الشريفة بين الثورة البيولوجية ممثلة في رأس حربتها اليوجينيا والسياسات التي يعتنقها وينشرها العنصريون أو اليوجينيون الجدد. إن عام 2001 م شهد إعلان أحدهم ويدعى ريتشارد لين R.Lynn عن عودة اليوجينيا باسمها الصريح، هذا حينما أصدر كتابًا له يحمل عنوان «اليوجينيا: إعادة تقييم» وقال فيه: " إننا على أبواب عصر جديد. إننا نتحرك بسرعة تفوق الخيال إلى نوع بشري جديد، وستسبقه حرب عرقية " . وقد رد على المفكرين اليساريين بقوله:" إنهم أمسكوا بزمام الإعلام الأيديولوجي وأقنعوا الغرب بأن لاشيء يسمى «العرق» أو السلالة، وأن اليوجينيا علم كاذب. لقد حيّدوا الغربيين بأن قالوا بأن البشر من طبيعة واحدة. وحان الوقت لنتحرر من هذه الأفكار والقيود، التي كبلونا بها حتى لم يعد في استطاعتنا أن نعترض على فكرة وجود فروق عرقية بين البشر. (النشار، 2010م، صفحة 178)

ويحدث ذلك من خلال تحسين الصفات الوراثية، وإصلاح العيوب. " من الواضح أن الخط التالي من التقدم سيتمثل في تطبيق هذه التقنية على البشر. تثير الهندسة الوراثية البشرية مباشرة احتمال ظهور شكل جديد من اليوجينيا مع كل ما شحنت به هذه الكلمة من مضامين أخلاقية، ثم في النهاية القدرة على تغيير الطبيعة البشرية ذاتها"(فوكوياما، 2006، ص 97)

إن التدخل في المادة الوراثية للإنسان ينطوي على كثير من القضايا الأخلاقية. فإن التلاعب في الجينات وما يترتب عنه من تغيرات بيولوجية التي تطرأ على الإنسان ينجر عنه التلاعب في المنظومة الأخلاقية للإنسان لأن هذا الإنسان يعيش في وسط المجتمع و بالتالي فما يتعرض له من تسير في الجانب الأخلاقي يكون له تأثير عكسي على المجتمع. فاليوجينيا ركزت على التغيير في الكائن البشري و صنعه حسب ما يراد به وغير مراعين ومهتمين بباقي الجوانب المتعلقة بالنفس البشرية و هذا ما سيولد تصدع العلاقات الأخلاقية بين أفراد المجتمع الواحد بل حتى يتعداه الأمر حتى داخل العائلة نفسها. عاجلا أم أجلا ستدخل البشرية في دوامة وتعارض التصورات فما كان مألوفا في وقت مشى قد أصبح غامضا وما كان غير مألوف ومستحيلا أصبح واقعيا و ممكنا .

يلح هابرماس على ضرورة التمييز بين التعديلات الإيجابية التي تصب في صالح الإنسان وفي صالح صحته ، كإصلاح بعض العيوب والاختلالات الوراثية، أو معالجة بعض الأمراض الجينية، وبين التعديلات السلبية التي تجرى على الناس الأصحاء، أو تلك التي تحاول جعل الضعفاء أقوياء من خلال تغيير تركيبتهم الوراثية عن طريق استبدال صفاتهم الجينية الضعيفة بأخرى قوية على حسبهم، وبالتالي ضرورة الوقوف ضد هذه النسالة البشرية السلبية التي تتلاعب الجنس البشري وتحاول تغيير الخلق الإلهي، كما أنها تعد محاولة من أجل البشر متساوين ومتماثلين ، لأنها تقضي على الاختلاف البيولوجي وتلغي الفروق الفردية وتقضي على المنافسة بين الأفراد.

إن الوضع المتأزم للواقع العلمي اليوم يستوجب "تحيين" الإتيقا لتساير هذا التحول؛ بالمراقبة والتوجيه والتصويب لأن "ما يضعه العلم تقنيا بتصرفنا يجب أن يكون خاضعا لرقابة أخلاقية تجعلنا بالمقابل ولأسباب معيارية، غير قادرين على التصرف بها على هوانا"(هابرماس، 2006، صفحة 33، 34).

إنّ التقدم البيولوجي الذي يشهده العالم اليوم، يحتم علينا تطوير منظوماتنا الأخلاقية والقيمية بغية الحد من الانتهاكات اللااخلاقية للبحوث والتقنيات البيولوجية التي تهدد المقدسات البشرية، وبالأخص طبيعته وكرامته وقدسية حياته، وحمايته جوهره الأخلاقي من الانهيار، بالإضافة إلى هذا كله حماية إرثه الجيني من التغيير والتلاعبات البيولوجية التي انتهكته ولم تعد تحترم الجسد البشري المقدس، معتبرة إياه مجرد مادة قابلة للتجريب والتعديل، وسلعة قابلة للإنتاج

وإعادة الإنتاج والتداول في الأسواق، وعليه تصبح كرامة الإنسان من الشعارات الماضية البالية التي طواها عصر التقدم البيولوجي.

يجب إعادة النظر في العلاقة التي تجمع السلطة الدنيوية والسلطة الدينية ومحاولة عقد هدنة بين الطرفين ، لأن التحديات التي تواجه المجتمعات ما بعد الحداثة لا حصر لها. بات واضحا بأن الخطر الذي يداهم الإنسانية بفعل التطور العلمي قد يؤدي إلى القضاء على العنصر البشري (هابرماس و جوزيف، جدلية العلمنة "العقل والدين"، 2013، ص 23، 24).

لأن اليوم يعود إلينا تحسين النسل من الباب الخلفي في شكل وثوب جديد هو ذلك المسمى " بمشروع الجينوم البشري " الذي يمنح للعلماء بفهم أفضل للبيولوجيا كما يمنح لكل فرد فحص جيناته الوراثية ، هذا الفحص الذي يؤدي إلى التمييز بين الطبقات البشرية وتحديد الفروق بينهم ومن ثم تحديد الأفضل وحتى من يعيش ومن سيموت أو من يعمل ومن تعصف به البطالة ... وبهذا فهي تعيد الفكرة الجهنمية " سوبرمان " التي استولت على أذهان المفكرين وقادتهم وخاصة منهم الألمان والأمريكان فهي تدعي تقليل آلام الإنسان تحت غطاء القتل باسم الرحمة. (صلاح، 2001م، صفحة 152 . 153)

هذه الدعوة اليوجينية التي تكونت بالنظريات الوراثية إلا أنها تخفت تحت غطاء العنصرية والتمييز الطبقي قد استغلت بضراوة هذه الأقليات وبالطبع فإن الديمقراطية الغربية التي ترتكز على مبدأ المساواة قد تقف حائلا دون هذه المخاطر والمثالب التي يدعو إليها اليوجينيون وقد صدق الفيلسوف " برتراند رسل " جزئيا حين قال :" إن الديمقراطية تعترض الطريق " . وهذا مثل ما قد يحدث أمام دعاوي اليوجينيا لأنها تقوض الديمقراطية وتضع النخبة العارفة المخططة والمنقذة في الوقت الذي تهمل فيه كما قلنا وستستعبد الضعفاء والأقليات والفقراء " (النشار، 2010م، صفحة 177)

إن التطورات العلميّة وفي مقدمتها التطورات البيولوجية أصبحت اليوم أكبر خطر يهدد الإنسانية، فهي اليوم تهدد الوجود البشري وتمس كينونة الإنسان وهويته وجوهره المتفرد، وطبيعته المتميزة، من خلال التلاعب بتركيبته الوراثية، وتغيير محتواه الجيني وبنيته عن طريق التقنيات البيوتكنولوجية، وعلى رأسها تحسين النسل الذي يهدف إلى تغيير الصفات الوراثية للإنسان بحجة تحسين نسله ومنحه صفات وراثية قوية ودفع الأمراض عنه ، لكن هذا العمل انعكس سلبا على الإنسان، حيث وجد كرامته منتهكة ووجوده المقدس مهددا بزوال والتغيير، والأهم من هذا كله وجد قيمه ومنظوماته الأخلاقية تنهار لتصبح مقولة " الإنسان كائن أخلاقي مجرد شعار بسبب الانتهاكات اللااخلاقية التي يتعرض لها الجسد البشري اليوم في المختبرات البيولوجية.

فرغم مناهضة الكثير من المعارضين والديمقراطيين لهذه الدعاوي الخطرة إلا أن واقعنا اليوم يثبت عودتها وهو ما عبر عنه المفكر " أ . مستجير " بقوله :" جرحت اليوجينيا ولم تمت ... سقطت اليوجينيا ولم يسقط اليوجينيون " . لأنهم يعملون في الظلام وهو ما سميت دعوتهم " باليوجينيا المستورة " مثل قانون الحق في الإجهاض ووسائل منع الحمل ... الخ. (النشار، 2010م، صفحة 178)

فقلد عارض " جريجوري كافكا " أستاذ الفلسفة في جامعة كاليفورنيا من مخاطر مستقبل التطور البيولوجي اليوجيني حينما قال :" إن أي حركة تهدف إلى التطور الجيني يمكنها إرساء عدم المساواة الاجتماعية مجددا على الرغم من أن ذلك سيتم على أسس جديدة فقد تختفي الأرستقراطيات القديمة حسب المولد أو اللون أو الجنس لتستبدل بأرستقراطية جينية جديدة أو بما أسماه طبقة جينية " (النشار، 2010م، صفحة 181)

كما أكدت الكاتبة " كمونيت فاكلين " في كلمة بعنوان :" الحياة في أنبوب اختبار " عندما قالت :" اليوم يا للتناقض المذهل الجيل الذي أعقب النازي يقدم للعالم أدوات اليوجينيا تتجاوز أكثر الأحلام الهتلرية الهمجية " . (النشار، 2010م، صفحة 182)

هذا ما اعتبره عالم الأخلاق " فيليب بيريانوا من ناحية التفسير الحتمي للوراثة سواء كان إجباريا أو اختياريا أنها مبدأ يصنف ويميز الناس على أساس جدارتهم الوراثية أو مشكلاتهم الوراثية وكثيرا ما تتأسس على الهراء والقذارة وبالتالي ستكون هناك تداعيات سيئة للغاية يجب محاربتها ومناهضتها ومحاولة إصلاحها أخلاقيا وبالاعتماد على التكنولوجيا المعاصرة . (سميث، 2010م، صفحة 277)

لقد أصبحت التطورات البيولوجية اليوم مقلقة أكثر من أي وقت مضى، ففي كل يوم يستيقظ الإنسان على إكتشاف بيولوجي جديد، يثير الهلع في نفسه ويشوش عقله وتفكيره ، لأن هذا الإكتشاف البيولوجي الجديد من المحتمل أن يغير تركيبته الوراثية الفريدة من نوعها ويتلاعب بكينونته وهويته الإنسانية المقدسة ويسعى إلى تغييرها ، كما يمكن أن يتسبب هذا الإكتشاف الجديد في هدم كل منظوماته القيمية ويمزق علاقاته الأسرية والإجتماعية، وينتهك حياته وكرامته المقدسة، فيصبح فأر تجارب ومادة بعدما كان كائنا مقدسا منزها عن كل التجارب وفوق كل تلاعب وتغيير ، إننا في عصر القنابل البيولوجية ويجب علينا اليوم أن نهيء أنفسنا وعقولنا لإستقبالها وأن نفكر في كفية التعامل معها، وأن نعمل بكل جد وبدون تقاعس على حماية الجنس البشري من خطر التلاعب والتغيير.

خاتمة:

لا أحد ينكر أن التنبؤ بمستقبل الحياة على هذا الكوكب عامة ومستقبل الإنسان خاصة موضوع متشعب ومعقد وعويص جدا ، لأنه كلما اكتشفنا وعرفنا أكثر عن خبايا الإنسان، واطلعنا إلى المزيد من نظامه الوراثي، كانت النتائج أدق . ورغم كل ذلك فإن الفترة الزمنية الماضية قد مكنتنا بدرجة كبيرة من الحصول على معلومات قيمة لم يكن يتصور أن يوصل إليها لكن رغم ذلك فمازالت أسرار الحياة يكتنفها الكثير من الغموض وبعض الأسرار لم يتم اكتشافها بعد رغم التطورات البيولوجية ، وبالتالي لا شيء ثابت و أن التحدي الذي يواجه الإنسان المعاصر هو قدرته على إعادة بعث الروح الإنسانية دون إغفال الجانب العلمي وذلك باستعماله أحسن استعمال وأن يترافق العلم بالجانب البيوإتيقي.

إن الالتزام الفردي وسلطة الضمير وحدها لا تكفي مادامت هناك سلطة خارج ضمائرنا، هي سلطة الإلزامات الاجتماعية؛ ليحتفظ المجتمع بكيانه واستمراريته، ويتمكن من حماية حقوق أفراده، يجب أن يكون محاطا بترسانة إتيقية تحدد السلوكيات والممارسات الطبية لاسيما في ظل التحولات البيولوجية التي تولد عنها مخاطر ومخاوف على هوية الإنسان وكرامته، خاصة بعدما حاد الطب عن أهدافه. ولكن يبقى السؤال مطروحا: إذا كان مقبولا إصلاح العيوب والأمراض الوراثية بيولوجيا، فهل تغيير المادة الوراثية وتزويد الإنسان بصفات التميز والعبقرية يعد أمرا أخلاقيا ؟ .

قائمة المصادر و المراجع "

01الصادق هلالي، و سفيان محمد العسولي. (2007). معجم الوراثيات والعلوم البيولوجية والجزئية. الإسكندرية، مصر: منظمة الصحة العالمية المكتب الإقليمي للشرق الأوسط.

02جينا سميث. (2010م). عصر علوم مابعد الجينوم " كيف تحول التكنولوجيا وعلوم دنا حياتنا وكيف تحول كينونتنا " (المجلد ط1). (مصطفى ابراهيم فهمي، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.

دينيس بويكان. (2017م). البيولوجيا تاريخ وفلسفة (المجلد ط1). (لبنى الريدي و مها قابيل، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.

03ستيف جونز. (2007م). لغة الجينات. (احمد رمو، المترجمون) مكتبة الملحدين العرب.

04سعيد محمد الحفار. (1984). البيولوجيا ومصير الإنسان. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون الأدب.

05عبد الحسن صالح. (1981). التنبؤ العلمي ومستقبل الانسان. الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

06عثمان صلاح. (2001م). الداروينية والإنسان ، نظرية التطور من العلم إلى العولمة (المجلد د ط). الاسكندرية، مصر: المعارف بالاسكندرية.

07عمر بوفتاس،. (2011). البيوتيقيا الأخلاقيات الجديدة في مواجهة تجاوزات البيوتكنولوجيا. الدار البيضاء : إفريقيا الشرق.

08فرانسيس فوكوياما. (2006). مستقبلنا بعد البشري (المجلد 1). أبو ظبي، الإمارات: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.

09كارم السيد غانم. (بلا تاريخ). ، الاستنساخ والإنجاب بين تجريب العلماء وتشريع السماء (المجلد 1). القاهرة: دار الفكر العربي.

10كيفلس دانييل، و هود ليروي. (1990). الشفرة الوراثية للإنسان. الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

11مصطفى إبراهيم فهمي. (1 8، 1994). الطب الوراثي وحافة الخطر. مجلة العربي، صفحة 332.

12مصطفى النشار. (2010م). العلاج بالفلسفة " بحوث ومقالات في الفلسفة التطبيقية وفلسفة الفعل " (المجلد ط 1). القاهرة، مصر: الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع.

13موسى الخلف. (2003). العصر الجينومي " إستراتيجيات المستقبل ". الكويت: عالم المعرفة العدد 294.

14يورغن هابرماس. (2006). مستقبل الطبيعة الإنسانية نسالة ليبرالية. بيروت، لبنان: المكتبة الشرقية.

15يورغن هابرماس، و رايستنغر جوزيف. (2013). جدلية العلمنة "العقل والدين" (المجلد 1). بيروت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع.